كتاب
تاريخ بيروت
(تابع لما قبل)

فصل في ذكر فتوح بيروت ثانيًا

وصل السلطان الى ظاهر بيروت نهار الاربعاء حادي عشرين جمادى الأوّل سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (١١٨٧م) وخيّم على سَمْتها واحاط عسكرهُ بسائر جهاتها ونصب عليها المجانيق وضايقها وحاصرها ثمانية ايام. ثمّ سألهُ الفرنج الأمان فأمّنهم. وكان من عادته اذا سألوهُ الأمان يؤمّنهم. فتوجّه فرنج بيروت بامانةٍ الى صور وتسلّم بيروت ونصب السنجق السلطاني على قلعتها في نهار الخميس التاسع والعشرين من الشهر المذكور (١. وكان في البلد جماعة من المسلمين (٢ في ضيق بمساكنة الفرنج فانجلت عنهم الكربة ورأوا الفرَج بعد الشدّة. وولّى السلطان على بيروت سيف الدين عليّ بن احمد المشطوب (٢ وكان اميرًا جليل القدر. ثمّ ولّى عليها عزّ الدين أُسامة بن منقذ احد ملوك بني منقذ (٣ وكان من المعظمين عند السلطان حتى لم يكن يتقدّم عليهِ احدًا في المشورة والرأي.

---

١) ذكر ابو الفداء هذا الفتح في تاريخ سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧م) وقال انّ صلاح الدين تسلّم بيروت في السابع والعشرين جمادى (Historiens des Croisades, Hist. Orientaux I, 57 . وجاء في رواية اخرى: في التاسع والعشرين كما ذكر هنا ابن صالح

٢) هو الامير ابن مشطوب الكاري ولّاهُ صلاح الدين بيروت مدّةً وحارب معهُ الفرنج عند عكّة. قال ابو الفداء في تاريخ سنة ٥٨٧ (١١٩١م): ولمّا اشتد حصار الفرنج لعكّة وعجز السلطان صلاح الدين عن دفع العدو عنهم خرج الامير سيف الدين علي بن احمد المشطوب وطلب الامان من الفرنج على مالٍ واسرى يقومون بهِ للفرنج فاجابوهم الى ذلك (١٥). وارسلهُ صلاح الدين الى الفرنج فصالح باسمهِ ملك انكلترّة ريكرْد ثمّ اقطعهُ صلاح الدين نابلس وفيها مات سنة ٥٨٨ (١١٩٢ م)

٣) اسامة هذا من مشاهير رجال عصره اسمهُ مؤيد الدولة ابو المظفّر بن منقذ كان من اكابر بني منقذ اصحاب قلعة شَيْزَر وهو من الكتّاب المفلقين ولهُ اخبار كثيرة. راجع كتاب خريدة القصر لعماد الكاتب وتراجم ابن خلكان (ص ٩٣ من طبعة باريس). ولهُ كتبٌ جليلة طبع منها المعلم درنْبرغ قسمًا منها كتاب الاعتبار ومنتخبات جزيلة الفائدة. توفي ابن منقذ بدمشق سنة ٥٨٤ (١١٨٩م)

وعزّ الدين اسامة المذكور هو الذي بنى قلعة عجلون . ومن الاتفاق انّ عندي ديوان شعره بخطه . فكانت مدّة استيلاء الفرنج على بيروت ثمانين سنة وثمانية أيام

ثم استكمل السلطان فتوحات البلاد جميعها خلا صور وطرابلس والمرقب(١ وانطاكية امّا صور فصعب اخذها لاجتماع الفرنج لها . واما طرابلس فكان قد استولى عليها صاحب انطاكية وكان من جهة السلطان . واما المرقب فلأنّهُ كان حصناً منيعاً لم يتعرّض السلطان اليهِ . ثمّ بعد ذلك حضرت سفن الفرنج في البحر الى صور فتوجهوا الى عكّة فحاصروها . وحضر السلطان قبالتهم فكانوا محاصرين في زيّ محصورين مدّة طويلة

وفي غضون ذلك بلغ السلطان مجيء صاحب الالمان (٢ من البرّ في مائة الف فارس فارسل قوماً يخربون سور صيدا . وسور جبيل ونقل اهلها الى بيروت . ونقل الميرة الى هذه المدينة وشحنها بالرجال والسلاح وحصّنها وجعلها قاعدةً (٣ لذلك الجانب . فكفى الله المسلمين شرّ صاحب الالمان وسلّط عليهم الفناء فهلك الملك وغالب عسكره . ووصل ولد الملك (٣ الى عكّة في دون الف مقاتل (٤ ولم يتعرّض في طريقهِ الى بيروت ولا الى غيرها . ثمّ غلبت الفرنج واخذت عكّة في سابع عشر جمادى الآخر سنة سبع وثمانين وخمسمائة (١١٩١م) وساروا منها الى يافا والسلطان في قبالتهم . وجرى بينهم حروب عظيمة حتى كلّ الفريقان . فحصل بينهما هدنة مدّة ثلاث سنين وثلثة اشهر وثلثة ايام اولها مبتدأ ايلول الموافق للحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة (١١٩٢م) على انّ البلاد الجبليّة تكون للمسلمين والساحلية للفرنج . وصيدا وبيروت وجبيل للسلطان

وتوجّه السلطان الى القدس ثمّ الى ما تأخّر في يدهِ من البلاد التي استنقذها من الفرنج ووصل الى بيروت واقام بها أيّاماً . وحضر اليهِ وهو مقيم بها بُيمُند الفرنجي (٥ صاحب طرابلس وانطاكية . وكان حضور السلطان الى بيروت ثلاث مرّات . الاولى كانت على سبيل الغارة . والثانية لما فتحها . والثالثة هذه المرّة المذكورة ومنها توجه الى دمشق فتوفي

---

١) المرقب اسم قلعة حصينة مشرفة على ساحل بحر الشام وعلى بُلُنياس

٢) هو الامبراطور فردريك بربروس مات غرقاً في نهر البَرَدان (Cydnus) قرب طرسوس سنة ١١٩٠ م وكان نزل فيهِ ليستحمّ ٣) هو فردريك دوق دي صواب

٤) وقيل بقي معهُ ستّة آلاف مقاتل

٥) هو بُوهِيمُنْد الثالث ابن رَيْمُند دي بواتيه وسيّد انطاكية

بها بكرة نهار الاربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة (١١٩٣م). وحصل بعده خلاف وتفريق كلمة فطمعت الفرنج وحضروا بالسفن الى عكّة وكانت قد انقضت مدّة الهدنة (١٥) المذكورة فخرجوا من عكة لقصد صيداء وبيروت

فصل في ذكر استيلاء الفرنج على بيروت

كان عزّ الدين أسامة بن مُنقذ والياً على بيروت فلمّا بلغهُ استيلاء الفرنج على صيداء خرج من المدينة بجماعته واهله. فلامهُ الناس على ذلك وعنّفوهُ وشجاهُ بعض الشعراء. وذلك انّ الفرنج كانوا حصروا حصن تِبْنين (١ وسألوا صاحبهُ تسليمهُ بالامان فقال بعض اهل الحصن لصاحبه :

سلّم الحصنَ ما عليك ملامَهْ لا يُلامُ الذي يروم السلامَهْ
فعطاء الحصون من غير حربٍ سُنّةٌ سنّها ببيروتَ أسامَهْ

وتسلّمت الفرنج بيروت في نهار الجمعة عاشر ذي الحجة سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة (١١٩٧) وكانت مدّة استيلاء المسلمين على بيروت عشر سنين وشهرًا واحدًا واحد عشر يومًا. ورجع امر الفرنج في بيروت الى ما كانوا عليه قبل فتوح السلطان صلاح الدين المذكور. وكان اهل القرى التي حول بيروت مسلمين فأدّوا الطاعة والخراج للفرنج. وبقيت الولايةُ الجبليّة لعزّ الدين أسامة ثمّ سار الى مصر

فصل في فتوحات بيبرس وقلاوون للسواحل

بعد ذكرنا استيلاء الفرنج على بيروت يجب ان نبيّن ملخّصًا امر فتوح السواحل ليكون ذكر فتوح بيروت الثالث واضحًا في موضعه

افتتح الملك الظاهر بيبرس البُنْدُقداريّ (٢ قيساريّة وأرسوف (٣ وصَفَد وطبريّة

---

١) كذا في الاصل والصواب تِبْنين وهو حصن على مسافة ١٢ ميلًا من صور في شرقها الجنوبيّ

٢) هو رابع ملوك الدولة التركانيّة في مصر ملك من سنة ٦٥٨ الى ٦٧٦ (١٢٦٠-١٢٧٧م)

٣) مدينة على ساحل بحر الشام بين يافا وقيساريّة على عشرة اميال من شمال يافا

ويافا والشقيف (١ وأنطاكية وبغراس (٢ (٣) والقصير (٣ وحصن الاكراد (٤ وحصن عكّار (٥ والتُرين (٦ وصافيتا (٧ وحلبا (٨ . وتاصف الفرنج على المرقب (٩ وبُلُنياس (١٠ وبلاد أنطرطوس (١١ . فلمّا افضت السلطنة الى الملك المنصور قلاوون الألفي (١٢ افتتح المرقب وطرابلس وما يليها واخرب طرابلس ونقايا الى سفح الجبل . واعطى امانًا لصاحب جبيل وصاحب بيروت . ثمّ جرى بينه وبين فرنج صيدا وعكة وعثليث (١٣ اتفاق على هدنة وعهد

ثمّ بلغ الملك المنصور انّ الفرنج بعكّة غدروا بالعهد وقتلوا جماعة من تجّار المسلمين كانوا قد حضروا الى عكّة يتاجر تمسّكًا بالهدنة والعهد . ومن جملتهم تجّار حضروا في البحر ومعهم ممالك هديّة للسلطان . فبرز المنصور قلاوون الى ظهر مصر قاصدًا عكّة

---

١) يوجد موضعان بهذا الاسم اسم احدهما شقيف أرنون (تصحيف اسم أرنلد Arnauld) ولعلّهُ هو المراد هنا وكان قامةً حصينة جدًّا قرب بانياس من ارض دمشق بينها وبين الساحل . والثاني شقيف تيرون اي شقيف صور وكان ايضًا حصنًا وثيقًا بالقرب من صور

٢) مدينة في خلف جبل الأكراد بين انطاكية والاسكندرونة كان صلاح الدين فتحها ثم استرجعها الفرنج الى ان تغلّب عليها بيبرس

٣) نظن انّ المؤلف يريد قصر حيفا وهو موضع بين حيفا وقيسارية

٤) كان حصنًا منيعًا وموقعهُ في غربيّ حمص على اربعة وعشرين ميلًا منها

٥) كان حصن عكّار من الحصون الحريزة في ايّام الصليبيين يبعد عن طرابلس نحو واحد وعشرين ميلًا في شمالها الشرقيّ

٦) التُرين كان حصنًا حريزًا على ساحل الشام ليس ببعيدٍ من صفد كان يسكنهُ رهبان الفرنج المعروفون بالاسبتلار (Hospitaliers)

٧) صافيتا قلعة وثيقة في جبال النصيريّة

٨) مدينة صغيرة في شمالي شرقيّ عرقة على ميلين منها وعلى ١٦ ميلًا من طرابلس

٩) المرقب حصن في جنوبيّ شرقيّ اللاذقيّة يبعد عنها ٢٦ ميلًا

١٠) بُلُنياس بلدةٌ موقعها قرب المرقب على البحر كان القدماء يدعونها أبُولُنيّة

١١) انطرطوس مدينة ساحليّة هي اوّل أعمال حمص مطلّة على البحر في شرقي عرقة بينها ثمانية فراسخ كان لها بُرْجان حصينان كالقلعتين

١٢) هو السلطان منصور قلاوون الصالحيّ النجميّ تولّى الملك سنة ٦٧٨ وتوفي سنة ٦٨٩ (١٢٨٠–١٢٩١ م) . دُعي بالألفيّ لانهُ بيع في صغره بالف دينار

١٣) عثليث قلعة حريزة على ساحل البحر تبعد ثمانية اميال عن جبل الكرمل جنوبًا

فقضى الله بوفاته. وتسلطن ولدهُ الملك الاشرف خليل(١ فاستقرَّ على قصد ابيهِ وحضر الى عكَّة فاخذها بعد قتال شديد وذلك في يوم الجمعة السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسعين وستمائة (١٢٩١ م) وقتل اهلها. فالقى الله الرُّعب في قلوب الفرنج فأخلوا صور وصيداء من غير قتال وكذلك حيفا. وتأخرت عثليث وقلعة صيداء التي في البحر. فعيَّن السلطانُ سنجرَ (٢ الحلبيَّ وسنجر الشجاعيَّ (٣ لفتحها. ثمَّ توجه السلطان من عكة الى دمشق ففُتحت عثليث وقلعة صيداء.

ولما فرغ سنجر الشجاعيّ من خراب قلعة (٤) صيداء توجَّه على خيل البريد الى دمشق ولحق بالسلطان عند رحيلهِ منها الى جهة مصر. فوكَّل اليهِ نيابة الشام ورسم لهُ ان يعود الى بيروت وكانت داخلة في الطاعة الشريفة لانَّ صاحبها كان قد ارسل الى السلطان وهو محاصر لعكة يطلب منهُ الامان فاجابهُ الى طلبهِ

فصل في ذكر فتوح بيروت ثانيًا

فلمَّا وصل سنجر الشجاعيّ الى بيروت تلقَّاهُ صاحبها وخيَّالتهُ احسن مُلتقىً. ونزل في القلعة وامرهم ان ينقلوا اولادهم وحريمهم واثقالهم الى القلعة ففعلوا وظنُّوا انهُ يفعل ذلك شفقةً عليهم. فلمَّا صاروا في القلعة قبض على الرجال وقيَّدهم والقاهم في الخندق وذلك في نهار الاحد الثالث والعشرين من رجب سنة تسعين وستمائة (١٢٩١) . ثمَّ جهَّز سنجرُ علَمَ الدين الداوديَّ والجاكيَّ (٤ الى جبيل فاستولى على اسوارها وقلعتها وابقى على اهلها وكانوا من الجَنَويَّة

---

١) هو السلطان صلاح الدين خليل بن قلاوون الملقب بالملك الاشرف تولَّى السلطنة من سنة ٦٨٩ الى ٦٩٣ هـ (١٢٩٠ – ١٢٩٣ م)

٢) سنجر الحلبيّ ولقبهُ علم الدين كان نائبًا على دمشق للملك المظفَّر قُطُز. ثم استولى على المدينة فارسل الملك الظاهر بيبرس عسكرًا لقتالهِ فقبضوا عليهِ اسيرًا. ذكرهُ ابو الفداء في تاريخ سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م)

٣) هو علم الدين سنجر الشجاعيّ من امراء الملك الاشرف صلاح الدين خليل تسلَّم صيداء وبيروت من يد الفرنج لمَّا اخلوها واستنابهُ السلطان على دمشق ثمَّ عزلهُ. ولمَّا صارت السلطنة الى الملك الناصر اخي الاشرف استوزر سنجرَ الشجاعيّ. ثم صارت وحشة بينهُ وبين الامير زين الدين كتبغا المنصوري نائب السلطنة فحاربهُ كتبغا وغلبهُ وامر بقتلهِ سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٤ م)

٤) لم نقف على شيء من اخبار هذين الاميرين. ولعلَّ في اسم الجاكي المذكور تصحيفًا

ثمَّ شرع سنجر الشجاعيّ في هدم سور بيروت وقلعتها وكانت محكمة البناء. ثمّ جهّز اهلها الى دمشق وانفذهم منها الى مصر باجمعهم فهلك منهم المشايخ والعجائز والنساء. ولمّا وصلوا الى مصر اطلقهم السلطان وقال: أماني باقٍ عليكم. وخيّرهم بين العود الى بيروت او التوجّه الى قبرس باجمعهم. وكانت مدّة استيلاء الفرنج على بيروت في هذه النوبة (١) خمساً وتسعين سنة وسبعة اشهر وثلاثة عشر يوماً

ذكر بعض حوادث جرت في بيروت بعد الفتوح الثالث الى ايّام المؤلّف

ولنذكرنّ الآن بعض حوادث جرت في بيروت بعد الفتوح. ولا بأس اذا تكرّر ذكرها في اخبار الامراء من بني الغرب فتكون هذه الخلاصة تبياناً لاحوالهم. وسنأتي ان شاء الله بذكر حوادث غيرها عند تفصيل اخبارهم

قال النويريّ: لمّا حضر السلطان الملك الاشرف خليل بن منصور الى الشام سنة احدى وتسعين وستمائة (١٢٩٢) افتتح قلعة الروم (١ كان ذلك في حضوره الثاني الى الشام بعد فتوح السواحل

وفي شهر شعبان سنة احدى وتسعين وستمائة توجّه الامير بيدرا (٢ قائد السلطنة بمصر وقصد جبال كسروان وتوجّه بصحبته من الامراء الاكابر شمس الدين سُنقر الاشقر (٣ والامير قرا سُنقر المنصوريّ (٤ والامير بدر الدين بكتوت الاتابكي والامير بدر

---

١) قال ياقوت: قلعة الروم قلعة حصينة في غربيّ الفرات مقابل البيرة بينها وبين سُميساط كان بها مقام بطرك الارمن

٢) بيدرا كان من مماليك الملك المنصور قلاوون استنابهُ الملك الاشرف في دمشق ثم جعلهُ نائبَ السلطنة ولم يلبث انَّ دسَّ لولديّ نعمتهِ الدسائس فقتلهُ بمشاركة الامراء المماليك وعُهدت اليهِ السلطنة بعد الاشرف وتلقّب بالملك القاهر الّا انَّ ملكهُ لم يدم الّا يوماً واحداً فقُتل سنة ٦٩٣ (١٢٩٤ م)

٣) شمس الدين سُنقر الاشقر احد امراء المماليك استوظفهُ الملك الاشرف في دواوين الشام سنة ٦٩٠ه (١٢٩١) ثم اعتقلهُ وامر بشنقهِ سنة ٦٩٢ه (١٢٩٣)

٤) قرا سُنقر المنصوري كان مملوكاً للملك المنصور قلاوون فلقّبهُ شمس الدين. شارك الامير بيدرا على قتل الملك الاشرف ورقم الملكُ زينُ الدين كتبغا شأنهُ وقرَّر لهُ الاقطاعات الجليلة سنة ٦٩٣ (١٢٩٣). وجعلهُ حسام الدين لاجين نائبُ السلطنة ثمَّ اعتقلهُ فافرج عنهُ الملك الناصر بعد

الدين بكتوت للعلائي (١ وغيرهم. واتاهم من جهات الساحل ركن الدين بيبرس طُقصوا (٢ والامير عزّ الدين ايبك الحموي (٣ وغيرهما. والتقوا بالجبل وحضر الى الامير بيدرا مَن ثنى عزمهُ وكسر حدّتهُ لحصل الفتور في امرهم حتّى تمكّن الكسروانيّون من بعض العسكر في تلك الاوعار ومضايق الجبال فنالوا منهم. وعاد العسكر شبه المكسور المنهزم وطمع فيهم اهل تلك الجبال حتّى اضطرّ الامير بيدرا ان يطيّب قلوبهم ويُحسن اليهم وخلع على جماعة من اكابرهم (٤. فأشتطّوا في الطلب فاجابهم الى ما التمسوهُ من الافراج عن جماعة منهم كانوا قد اعتُقلوا بدمشق لذنوب وجرائم صدرت منهم. وحصل للكسروانيين من القتل والنهب والظفر ما لم يكن في حسابهم. وحصل للامراء والعسكر من الألم ما اوجب تسريح بعضهم لسوء تدبير الامير بيدرا. ونسبوهُ الى إهمال امرهم واتّهموهُ بالفتور عن قتالهم حتى تمكّنوا مما تمكّنوا منهُ لطمعهِ. واشاعوا انّهُ تبرطل منهم واخذ رشوةً كبيرة واحتجّ الناس بذلك (٤

ثمّ توجّه الامير بيدرا بالعساكر الى دمشق فتلقّاهُ السلطان واقبل عليهِ وترجّل عند ترجُّلهِ للسلام عليهِ. ولمّا انكر عليهِ سوء اعتمادهِ وتفريطهِ في العسكر عمل كلامُ السلطان فيه حتّى مرض لذلك وشاع الناس انهُ سُقي السمّ. ثم عوفي في العشر الاوّل من رمضان فتصدّق السلطان بجملةٍ كثيرة من المال شكرًا لله على عافيتهِ واطلقوا جماعةً كثيرة ممّن كانوا في السجون. وتصدّق الامير ايضًا وتزل عن كثيرٍ ممّا كان اغتصبهُ من املاك الناس. وجمع العلماء والقضاة والقرّاء والمشايخ في العاشر من رمضان بالجامع (الاموي) بدمشق

سنة وشهرين واعطاهُ نيابة السلطنة بحماة ثم بدمشق وحلب ثم اتصل بالظاهر مع اقوش الافرم سنة ٧٢٢ (١٣٢٢) وخدم خربندا ومات نحو سنة ٧٣٠ (١٣٣٠)

١) بكتوت العلائي وبكتوت الاتابكي كلاهما من امراء الملك الاشرف لم نجيل على بُغيهِ من اخبارهما

٢) وكن الدين بيبرس طُقصوا كان اميرًا للاشرف تتبّر عليهِ سيده مدّةً فاعتقلهُ ثم سرّح سبيلهُ ثم قتلهُ سنة ٦٩٢ (١٢٩٣)

٣) عزّ الدين ايبك الحموي احد امراء الملك الاشرف بقي مدّة بالامارة بعدهُ واعتقلهُ حسام الدين لاجين مع غيرهِ من الامراء سنة ٦٩٧ (١٢٩٨) ثم تولّى نيابة حمص وتوفي سنة ٧٠٣ (١٣٠٣)

٤) ورد خبر غزوة الامير بيدرا لكسروان في تاريخ المماليك للمقريزي. وتفاصيلها لا تختلف عمّا ذكرهُ المؤلف هنا

لقراءة ختمة (١ واشمل الجامع في هذه الليلة كما يشمل في نصف شعبان. وكان الذي اخبر السلطان انّ بيدرا ارتشى من الكسروانيين بيبرس طقصوا فاسرّ بيدرا الامر في نفسه وتربّص لهُ. فلمّا قبض السلطان على لاجين (٢ في عيد الفطر من السنة المذكورة خاطب بيدرا السلطانَ في القبض على بيبرس طقصوا فقُبض (٢ عليهِ مع لاجين لانهُ كان قد تزوّج ابنتهُ (ستاتي البنية)

خريدة لبنان

(للاب هنري لامنس اليسوعي)

(تابع لما قبل)

هذا ولم يتفك طلاّب انيسة عن ملاحقتها. وانّما توقّف فارس عبّود وحدهُ عن الالحاح لمّا رأى ثبات عزمها. لكنهُ عمد الى حيلة تنغّصت عيشها. فانهُ دنا منها ذات يوم وفي يدهِ رسالة حاشيتُها سوداء وقال لها: قد وصلت اخبار عن حنّا الطويل

فلما سمعت انيسة ذكرَكَ برقت عيناها وسألت قائلة: ما يكون الخبر؟ فاجاب فارس بمظاهر الحزن الشديد: ما هو خبر سارّ

— اهو مريض؟

— يا ليته... لكن..

— أفهمت؟ قل بحياتك قل لي الحقيقة. لا تخفِ عني شيئًا

فلم يكن من فارس الّا انه نشر تلك الرسالة وقرأ مضمونها. وكانت من احد انسباء حنّا غنطوس المقيم في الاسكندريّة وهو يقول فيها ان المركب الانكليزي الذي سافر عليه حنّا

---

١) قراءة الختمة هي رتبة دينيّة عند المسلمين يُقرأ بها القرآن على تمامهِ

٢) لاجين هو حسام الدين لاجين المنصوري المعروف بالصغير احد امراء الملك الاشرف قبض عليهِ سيّدهُ في دمشق مع الامراء سنقر الاشقر وجرمق وبكتوت وبيبرس طقصوا واعتقلهم مدّة في مصر ثم بشفعهم الّا انّ وتر الامير لاجين قُطع فنجا من الموت ثم اتّفق مع الامراء على قتل الملك الاشرف. واستولى على السلطنة بعد الملك العادل كتبغا سنة ٦٩٦ (١٢٩٧) وقتل سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٩) قتلهُ المماليك